Ḥasan Bannā

Ilá ayy shay' nad'ū al-nās.

الى اي شيء ندعو الناس

ئل الأخوان المسلمين

الى أى شىء ندعو الناس

للإمام الشهيد حسن البنا

الناشر
دار الكتاب العربى بمصر
محمد حلمى المنياوى

من رسائل الإخوان المسلمين

Ilá ayy shay' nad'ū al-nās

إلى أى شىء ندعو الناس

للإمام الشهيد حسن البنا

Hasan al-Bannā

الناشر
دار الكتاب العربي بمصر
محمد حلمي المنياوي

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

قد تتحدث إلى كثير من الناس فى موضوعات مختلفة فتعتقد أنك قد أوضحت كل الإيضاح ، وأبنت كل الإبانة ، وأنك لم تدع سبيلا إلى الكشف عما فى نفسك إلا سلكتها حتى تركت من تحدثهم على المحجة البيضاء ، وجعلت لهم ما تريد بحديثك من الحقائق كفلق الصبح أو كالشمس فى رابعة النهار كما يقولون ، وما أشد دهشتك بعد قليل حين ينكشف لك أن القوم لم يفهموا عنك ؛ ولم يدركوا قولك .

رأيت ذلك مرات ولمسته فى عدة مواقف ، وأعتقد أن السر فيه لا يعدو أحد أمرين : إما أن الذى يقيس به كل منا ما يقول وما يسمع مختلف ، فيختلف تبعاً لذلك الفهم والإدراك ، وإما أن يكون القول فى ذاته ملتبساً غامضا ، وإن اعتقد قائله أنه واضح مكشوف .

المقياس

وأنا أريد فى هذه الكلمة أن أكشف للناس عن دعوة الإخوان المسلمين وغايتها ومقاصدها وأساليبها ووسائلها فى صراحة ووضوح ، وفى بيان وجلاء ، وأحب أولا أن أحدد المقياس الذى نقيس به هذا التوضيح ، وسأجتهد فى أن يكون القول سهلا ميسوراً ؛ لا يتعذر فهمه على قارىء يجب أن يستفيد ، وأظن أن أحداً من الأمة الإسلامية جميعاً لا يخالفنى فى أن يكون هذا المقياس « كتاب الله » نستقى من فيضه ونستمد من بحره ونرجع إلى حكمه .

يا قومنا

إن القرآن الكريم كتاب جامع جمع الله فيه أصول العقائد وأسس المصالح الاجتماعية ، وكليات الشرائع الدنيوية ، فيه أوامر وفيه نواه ، فهل عمل المسلمون بما فى القرآن ، فاعتقدوا وأيقنوا بما ذكر الله من المعتقدات ، وفهموا ما أوضح لهم من الغايات ؟ وهل طبقوا شرائعه الاجتماعية والحيوية على تصرفاتهم فى شئون حياتهم ؟ إن انتهينا من بحثنا أنهم كذلك

فقد وصلنا معاً إلى الغاية ؛ وإن تكشف البحث عن بعدهم عن طريق القرآن وإهمالهم لتعاليمه وأوامره فاعلم أن مهمتنا أن نعود بأنفسنا وبمن تبعنا إلى هذا السبيل .

غاية الحياة فى القرآن

إن القرآن حدد غايات الحياة ومقاصد الناس فيها ، فبين أن قوماً همهم من الحياة الأكل والمتعة ؛ فقال تبارك وتعالى :

« والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » .

وبين أن قوماً آخرين مهمتهم الزينة والعرض الزائل فقال تبارك وتعالى :

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب » .

وبين أن قوماً آخرين شأنهم فى الحياة إيقاد الفتن وإحياء الشرور والمفاسد ، أولئك الذين قال الله فيهم :

« ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد

الله على مافى قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد » .

تلك مقاصد من مقاصد الناس فى الحياة نزه الله المؤمنين عنها ، وبرأهم منها ، وكلفهم مهمة أرقى ، وألقى على عاتقهم واجبا أسمى ، ذلك الواجب هو « هداية البشر إلى الحق ، وإرشاد الناس جميعاً إلى الخير ، وإنارة العالم كله بشمس الإسلام » فذلك قوله تبارك وتعالى :

« يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون . وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير » .

ومعنى هذا أن القرآن الكريم يقيم المسلمين أوصياء على البشرية القاصرة ، ويعطيهم حق الهيمنة والسيادة على الدنيا

لخدمة هذه الوصاية النبيلة ، وإذن فذلك من شأننا لا من شأن الغرب ، ولمدنية الإسلام لا لمدنية المادة .

وصاية المسلم تضحية لا استفادة

ثم بين الله تبارك وتعالى أن المؤمن فى سبيل هذه الغاية قد باع لله نفسه وماله ، فليس له فيها شىء ، وإنما هى وقف على نجاح هـذه الدعوة وإيصالها إلى قلوب الناس ، وذلك قوله تعالى :

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » .

ومن ذلك نرى أن المسلم يجعل دنياه وقفاً على دعوته ليكسب آخرته جزاء تضحيته ؛ ومن هنا كان الفاتح المسلم أستاذاً يتصف بكل ما يجب أن يتحلى به الأستاذ من نور وهداية ورحمة ورأفة ، وكان الفتح الإسلامى فتح تمدين وتحضير وإرشاد وتعليم ، وأين هذا مما يقوم به الاستعمار الغربى الآن ؟

أين المسلمون من هذه الغاية

فبربك ياعزيزى هل فهم المسلمون من كتاب ربهم هذا المعنى فسمت نفوسهم ورقت أرواحهم وتحرروا من رق المادة وتطهروا

من لذة الشهوات والأهواء ، وترفعوا عن سفاسف الأمور ودنايا المقاصد ، ووجهوا وجوههم لله الذى فطر السموات والأرض حنفاء يعلون كلمة الله تعالى ، ويجاهدون فى سبيله ، وينشرون دينه ، ويذودون عن حياض شريعته ، أم هم هؤلاء أسرى الشهوات وعبيد الأهواء والمطامع ، كل همهم لقمة لينة ومركب فاره وحلة جميلة ونومة مريحة وامرأة وضيئة ، ومظهر كاذب ولقب أجوف ؟

رضوا بالأمانى ، وابتلوا بحظوظهم
وخاضوا بحار الجد دعوى فما ابتلوا

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد القطيفة » .

الغاية أصل والأعمال فروع لها :

ولما كانت الغاية هى التى تدفع إلى الطريق ، وكانت الغاية فى أمتنا غامضة مضطربة ، كان لابد من أن نوضح ونحدد ، وأظننا وصلنا إلى كثير من التوضيح ، واتفقنا على أن مهمتنا سيادة الدنيا وإرشاد الإنسانية كلها إلى نظم الإسلام الصالحة وتعاليمه التى لا يمكن بغيرها أن يسعد الناس .

مصدر غايتنا

تلك هى الرسالة التى يريد الإخوان المسلمون أن يبلغوها للناس ، وأن تفهمها الأمة الإسلامية حق الفهم، وتهب لإنفاذها فى عزم وفى مضاء ، لم يبتدعها الإخوان المسلمون ابتداعاً ، ولم يختلقوها من أنفسهم ، وإنما هى الرسالة التى تتجلى فى كل آية من آيات القرآن الكريم، وتبدو فى غاية الجلاء والوضوح فى كل عمل من أعمال الصدر الأول ، الذين هم المثل الأعلى لفهم الإسلام وإنفاذ تعاليم الإسلام ، فإن شاء المسلمون أن يقبلوا هذه الرسالة كان ذلك دليل الإيمان والإسلام الصحيح وإن رأوا فيها حرجا أو غضاضة فبيننا وبينهم كتاب الله تبارك وتعالى ، حكم عدل وقول فصل يحكم بيننا وبين إخواننا ويظهر الحق لنا أو علينا :

« ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين » .

استطراد

يتساءل كثير من إخواننا الذين أحببناهم من كل قلوبنا ، ووقفنا لخيرهم والعمل لمصلحتهم الدنيوية والأخروية جهودنا وأموالنا وأرواحنا ، وفنينا فى هذه الغاية : غاية إسعاد أمتنا

وإخواننا عن أموالنا وأنفسنا ، وذهلنا فى سبيلهم عن أبنائنا والحلائل ، وكم أتمنى أن يطلع هؤلاء الإخوان المتسائلون على شباب الإخوان المسلمين ، وقد سهرت عيونهم والناس نيام ، وشغلت نفوسهم والخليون هجع ، وأكب أحدهم على مكتبه من العصر إلى منتصف الليل عاملا مجتهداً ومفكراً مجداً ، ولا يزال كذلك طول شهره حتى إذا ما انتهى الشهر جعل مورده مورداً لجماعته ، ونفقته نفقة لدعوته ، وماله خادماً لغايته ، ولسان حاله يقول لبنى قومه الغافلين عن تضحيته : لا أسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على الله ؛ ومعاذ الله أن نمن على أمتنا فنحن منها ولها ، وإنما نتوسل إليها بهذه التضحية أن تفقه دعوتنا وتستجيب لندائنا .

من أين المال ؟

يتساءل هؤلاء الإخوان المحبوبون الذين يرمقون الإخوان المسلمين على بعد ، ويرقبونهم عن كثب قائلين : من أين ينفقون ؟ وأنى لهم المال اللازم لدعوة نجحت وازدهرت كدعوتهم ، والوقت عصيب والنفوس شحيحة ؟ وإنى أجيب هؤلاء بأن الدعوات الدينية عمادها الإيمان قبل المال ،

والعقيدة قبل الأعراض الزائلة ، وإذا وجد المؤمن الصحيح وجدت معه وسائل النجاح جميعاً ، وإن فى مال الإخوان المسلمين القليل الذى يقتطعونه من نفقاتهم ويقتصدونه من ضرورياتهم ومطالب بيوتهم وأولادهم ، ويجودون به طيبة نفوسهم سخية به قلوبهم ، يود أحدهم لو كان له أضعاف أضعافه فينفقه فى سبيل الله ، فإذا لم يجد بعضهم شيئاً تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون ، فى هذا المال القليل والإيمان الكبير « ولله الحمد والعزة » بلاغ لقوم عابدين ونجاح للعاملين الصادقين ، وإن الله الذى بيده كل شىء ليبارك فى القرش الواحد من قروش الإخوان .

« يمحق الله الربا ويربى الصدقات » .

« وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » .

نحن والسياسة

ويقول قوم آخرون إن الإخوان المسلمين قوم سياسيون ودعوتهم دعوة سياسية ، ولهم من وراء ذلك مآرب أخرى ، ولا ندرى إلى متى تتقارض أمتنا التهم وتتبادل الظنون وتتنابز

بالألقاب ، وتترك يقينا يؤيده الواقع فى سبيل ظن توحيه الشكوك ؟

يا قومنا ، إننا نناديكم والقرآن فى يميننا والسنة فى شمالنا وعمل السلف الصالحين من أبناء هذه الأمة قدوتنا ، وندعوكم إلى الإسلام وتعاليم الإسلام وأحكام الإسلام وهدى الإسلام فإن كان هذا من السياسة عندكم فهذه سياستنا ، وإن كان من يدعوكم إلى هذه المبادىء سياسياً فنحن أعرق الناس والحمد لله فى السياسية ، وإن شئتم أن تسموا ذلك سياسة فقولوا ما شئتم فلن تضرنا الأسماء متى وضحت المسميات وانكشفت الغايات .

يا قومنا لا تحجبكم الألفاظ عن الحقائق ، ولا الأسماء عن الغايات ، ولا الأعراض عن الجواهر ، وإن للإسلام لسياسة فى طيها سعادة الدنيا وصلاح الآخرة ؛ وتلك هى سياستنا لا نبغى بها بديلا فسوسوا بها أنفسكم ، واحملوا عليها غيركم تظفروا بالعزة الأخروية ، ولتعلمن نبأه بعد حين .

قوميتنا وعلى أى أساس ترتكز

أيها الأخ : تعال نصغ معاً إلى صوت العزة الإلهية يدوى فى أجواء الآفاق ، ويملأ الأرض والسبع الطباق ، ويوحى

فى نفس كل مؤمن أسمى معانى العزة والفخار ، حين يسمع هذا النداء الذى تستمع له السموات والأرض ومن فيهن من لدن بلغه الأمين إلى هـذا الوجود ، إلى حيث لا نهـاية ، إذ كتب له الخلود .

« والله ولى الذين آمنوا » .

أجل أجل يا أخى : هذا نداء ربك إليك . فلبيك اللهم لبيك . وحمداً وشكراً لك لا نحصى ثناء عليك ؛ أنت أنت ولى المؤمنين ونصير العاملين ، والمدافع عن المظلومين الذين حوربوا فى بيوتهم وأخرجوا من ديارهم ، عز من لجأ إليك وانتصر من احتمى بحماك .

« ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز » .

أجل أجل يا أخى : تعال نستمع معاً إلى صوت القرآن الكريم ، ونطرب بتلاوة الآيات ، ونسجل جمال هذه العزة فى صحائف ذلكم الكتاب المطهر .

إلى إلى يا أخى ، واسمع قول الله تبارك وتعالى :

١ — « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور » . (سورة البقرة)

٢ — « بل الله مولاكم وهو خير الناصرين » .

(سورة آل عمران)

٣ — « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » (سورة المائدة)

٤ — « إن ولي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » (سورة الأعراف) .

٥ — « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » (سورة التوبة) .

٦ — « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون » (سورة يونس) .

٧ — « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم » (سورة محمد صلى الله عليه وسلم) .

ألست ترى فى هذه الآيات البينات أن الله تبارك وتعالى ينسبك إلى نفسه ، ويمنحك فضل ولايته ويفيض عليك من فيض عزته !.

« ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » .

وفى الحديث الشريف الذى يرويه المختار صلى الله عليه وسلم

عن ربه ما معناه : « يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة يا بنى آدم جعلت نسبا وجعلتم نسبا فقلتم فلان ابن فلان ، وقلت : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، فاليوم أرفع نسبى وأضع نسبكم » .

لهذا أيها الأخ الكريم فضل السلف الصالح أن يرفعوا نسبتهم إلى الله تبارك وتعالى ، ويجعلوا أساس صلاتهم ومحور أعمالهم تحقيق هذه النسبة الشريفة ، فينادى أحدهم صاحبه :

لا تدعنى إلا بيا عبده   فإنه أشرف أسمائى

فى حين يجيب الآخر من سأله عن أبيه أتميمى هو أم قيسى :

أبى الإسلام لا أب له سواه   إذا افتخروا بقيس أو تميم

ليس بعد ذلك عزة

أيها الأخ العزيز : إن الناس إنما يفخرون بأنسابهم لما يأنسون من المجد والشرف فى أعمال جدودهم ، ولما يقصدون إليه من نفخ العزة والكرامة فى نفوس أبنائهم ، ليس وراء هذين المقصدين شىء ، أفلا ترى أن فى نسبتك إلى الله تبارك وتعالى أسمى ما يطمح إليه الطامحون من معانى العزة والمجد : « فإن العزة لله جميعاً » ، وأولى ما يرفع نفسك إلى أعلى عليين ،

وينفخ فيها روح النهوض مع العاملين ، وأى شرف أكبر وأى رافع إلى الفضيلة أعظم من أن ترى نفسك ربانياً ، بالله صلتك وإليه نسبتك ، ولأمر ما قال الله تبارك وتعالى :

« ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » .

أعظم مصادر القوة

وفى النسبة إلى الحق تبارك وتعالى معنى آخر يدركه من التحق بهذه النسبة . ذلك هو الفيض الأعم من الإيمان ، والثقة بالنجاح الذى يغمر قلبك ويملأ نفسك ، فلا تخشى الناس جميعا ولا ترهب العالم كله إن وقف أمامك يحاول أن ينال عقيدتك أو ينتقص من مبدئك :

« الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » .

ولأمر ما كان الواحد من أولئك القلائل المؤمنين بالله وثقته وتأييده يقف أمام الجحفل اللجب والجيش اللهام فلا يرهب صولته ولا يخشى أذاه لأنه لا يخشى أحداً إلا الله ، وأى شىء أعظم

من تلك القوة التى تنسكب فى قلب الرجل المؤمن حين يجيش صدره بقول الله تعالى :

« إن ينصركم الله فلا غالب لكم » .

قومیتنا نسبة عالمية

وهناك معنى من معانى السمو الاجتماعى فى انتساب الناس إلى الله تبارك وتعالى ، ذلك هو تآخى الشعوب وتآزر الجماعات والقضاء على المطامع التى توحى بها العصبية وتورث نيرانها بين الأمم التقاطع والتناكر ، فمن للعالم بأن يجتمع بقوة حول راية الله ؟

أحلام الأمس حقائق اليوم

هذا كلام طال عهد المسلمين باستماعه ، فقد يكون غامضاً عليهم ، غير مفهوم لديهم .

وقد يقول قائل : ما لهؤلاء الجماعة يكتبون فى هذه المعانى التى لا يمكن أن تتحقق ، وما بالهم يسبحون فى جو من الخيال والأحلام ؟ على رسلكم أيها الإخوان فى الإسلام والملة ، فإن ما ترونه اليوم غامضاً بعيداً كان عند أسلافكم بدهياً قريباً ، ولن يثمر جهادكم حتى يكون كذلك عندكم ، وصدقونى أن المسلمين

الأولين فهموا من القرآن الكريم لأول ما قرأوه عند مانزل فيهم ماندلى به اليوم إليكم ونقصه عليكم .

وأصارحكم بأن عقيدة الإخوان المسلمين يحيون بها ويأملون الخير فيها ويموتون عليها ، ويرون فيها كل ماتصبو إليه نفوسهم من متعة وجمال وإسعاد وحق : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » .

أيها الإخوان :

إذا اتفقتم معنا على هذا الأساس فاعلموا أن انتسابكم إلى الله تبارك وتعالى يفرض عليكم أن تقدروا المهمة التى ألقاها على عاتقكم ، وتنشطوا للعمل لها والتضحية فى سبيلها ، فهل أنتم فاعلون ؟

مهمة المسلم

إن مهمة المسلم الحق لخصها الله تبارك وتعالى فى آية واحدة من كتابه ورددها القرآن الكريم بعد ذلك فى عدة آيات ، فأما تلك الآية التى اشتملت على مهمة المسلمين فى الحياة فهى قول الله تبارك وتعالى :

« يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون . وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير »

هذا كلام بين لا لبس فيه ولا غموض ، ووالله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإنه لواضح كالصبح ، ظاهر كالنور يملأ الآذان ويدخل على القلوب بغير استئذان ؛ فهل لم يسمعه المسلمون قبل الآن ؟ أم سمعوه ولكن على قلوبهم أقفالا لا تعى ولا تتدبر ؟

يأمر الله المسلمين أن يركعوا ويسجدوا ، وأن يقيموا الصلاة التى هى لب العبادة وعمود الإسلام وأظهر مظاهره ، وأن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ، وأن يفعلوا الخير ما استطاعوا وهو حين يأمرهم بفعل الخير ينهاهم بذلك عن الشر ، وإن من أول الخير أن تترك الشر ، فما أوجز وما أبلغ ! ورتب لهم على ذلك الفلاح والنجاح والفوز ، وتلك هى المهمة الفردية لكل مسلم التى يجب عليه أن يقوم بها بنفسه فى خلوة أو جماعة .

حق الانسانية

ثم أمرهم بعد ذلك أن يجاهدوا فى الله حق جهاده ، بنشر هذه الدعوة ، وتعميمها بين الناس بالحجة والبرهان ، فإن أبوا إلا العسف والجور والتمرد فبالسيوف والسنان :

والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا
فالحرب أجـــدى على الدنيا من السلم

حراسة الحق بالقوة

وما أحكم ذلك القائل : « القوة أضمن طريق لإحقاق الحق وما أجمل أن تسير القوة والحق جنباً إلى جنب » ، فهذا الجهاد فى سبيل نشر الدعوة الإسلامية فضلا عن الاحتفاظ بمقدسات الإسلام فريضة أخرى ، فرضها الله على المسلمين ، كما فرض عليهم الصوم والصلاة والحج والزكاة وفعل الخير وترك الشر ، وألزمهم إياها وندبهم إليها ، ولم يعذر فى ذلك أحد فيه قوة واستطاعة ، وإنها لآية زاجرة رادعة وموعظة بالغة زاجرة :

« انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله » .

وقد كشف الله عن سر هذا التكليف ، وحكمة هذه الفريضة التى افترضها على المسلمين بعد هذا الأمر ، فبين لهم أنه اجتباهم واختارهم واصطفاهم دون الناس ليكونوا سواس خلقه وأمناءه على شريعته وخلفاءه فى أرضه ، وورثة رسوله صلى الله عليه وسلم فى دعوته ، ومهد لهم الدين وأحكم التشريع وسهل الأحكام ، وجعلها من الصلاحية لكل زمان ومكان بحيث يتقبلها العالم وترى فيها الإنسانية أمنيتها المرجوة وأملها المنتظر « هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس » .

وتلك هى المهمة الاجتماعية التى ندب إليها المسلمين جميعاً أن يكونوا صفاً واحداً وكتلة وقوة ، وأن يكونوا هم جيش الخلاص الذى ينقذ الإنسانية ويهديها سواء السبيل .

رهبان بالليل وفرسان بالنهار

ثم أوضح الحق تبارك وتعالى للناس بعد ذلك الرابطة بين التكاليف من صلاة وصوم بالتكاليف الاجتماعية، وأن الأولى

وسيلة للثانية ، وأن العقيدة الصحيحة أساسهما معاً ، حتى لا يكون لأناس مندوحة من القعود عن فرائضهم بحجة أنهم يعملون للمجموع ، وحتى لا يكون لآخرين مندوحة من القعود عن العمل للمجموع بحجة أنهم مشغولون بعباداتهم ، مستغرقون فى صلتهم بربهم ، فما أدق وما أحكم : « ومن أحسن من الله حديثاً » ؟ .

أيها المسلمون : عبادة ربكم ، والجهاد فى سبيل التمكين لدينكم وإعزاز شريعتكم هى مهمتكم فى الحياة ، فإن أديتموها حق الأداء فأنتم الفائزون ، وإن أديتم بعضها أو أهملتموها جميعا فإليكم أسوق قول الله تبارك وتعالى : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ؟ فتعالى الله الملك الحق » .

لهذا المعنى جاء فى أوصاف أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وهم صفوة الله من خلقه والسلف الصالح من عباده : (رهبان بالليل فرسان بالنهار) . ترى أحدهم فى ليله مائلا فى محرابه ، قابضاً على لحيته ، يتململ تململ السليم ، ويبكى بكاء الحزين ، ويقول : « يادنيا غرى غيرى » ، فإذا انفلق الصباح ، ودوى

النفير يدعو المجاهدين ، رأيته رئبالا على صهوة جواده ، يزأر الزأرة فتدوى لها جنبات الميدان .

بالله ، ما هذا التناسق العجيب ، والتزاوج الغريب ، والمزج الفريد بين عمل الدنيا ومهامها ، وشئون الآخرة وروحانيتها؟ ولكنه الإسلام الذى جمع من كل شىء أحسنه

استعمار الأستاذية والاصلاح

ولهذا المعنى أيها المسلمون نفر المسلمون — بعد أن اختار نبيه صلى الله عليه وسلم الرفيق الأعلى — فى أقطار الأرض قرآنه فى صدورهم ومساكنهم على سروجهم وسيوفهم بأيديهم ، حجتهم واضحة على أطراف ألسنتهم ، يدعون الناس إلى إحدى ثلاث : الإسلام أو الجزية أو القتال ، فمن أسلم فهو أخوهم له ما لهم وعليه ما عليهم . ومن أدى الجزية فهو فى ذمتهم ، وعهدهم يقومون بحقه ويرعون عهده ، ويوفون له بشرطه ، ومن أبى جالدوه حتى يظهرهم الله عليه : « ويأبى الله إلا أن يتم نوره » .

ما فعلوا ذلك لسلطان ، فزهادتهم فى الجاه والشهرة معروفة عند الخاص والعام ؛ ولقد قضى دينهم على تلك المظاهر الزائفة

التى يستمتع بها أقوام على حساب آخرين ، فكان خليفتهم أحدهم يفرض له من المال والعطاء ما لرجل منهم ليس بأفضلهم ولا أدركهم ، وأمرهم بينهم ، لا تميزه إلا بما أفاض الله عليه من جلال الإيمان وهيبة اليقين ، ولم يكن ذلك لمال ، فحسب أحدهم كسرة يرد بها جوعته ، وجرعة يطفىء بها ظمأته ، والصوم لديهم قربة ، والجوع أحب عندهم من الشبع ، وحظ أحدهم من الملبس ما يستر به عورته ، وكتابهم يناديهم بقول الله تعالى :

« والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » .

ونبيهم يقول لهم : (تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم تعس عبد القطيفة) .

إذن لم يكن مخرجهم من ديارهم لجاه ، أو مال ، أو سلطة أو استعمار ، أو استبداد . وإنما كان لأداء رسالة خاصة هى رسالة نبيهم صلى الله عليه وسلم التى تركها أمانة بين أيديهم ، وأمرهم أن يجاهدوا فى سبيلها : « حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » .

آن لنا أن نفهم

كان المسلمون يفهمون هذا قديماً ويعملون له ، ويحملهم إيمانهم على التضحية فى سبيله ، أما فى هذه الأيام فقد تفرق المسلمون فى فهم مهمتهم ، واتخذوا من التأويل والتعطيل سناداً للقعود والكسل ، فمن قائل يقول لك : مضى وقت الجهاد والعمل . وآخر يثبط همتك بأن الوسائل معدومة والأمم الإسلامية مقيدة ، وثالث رضى من دينه بكلمات يلوكها لسانه صباح مساء ، وقنع من عبادته بركعات يؤديها وقلبه هواء .

لا لا أيها الإخوان ، القرآن بينكم يناديكم بوضوح وجلاء : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيـــل الله أولئك هم الصادقون » .

وأما السنة فيقول لكم الرسول صلى الله عليه وسلم : « إذا ضن الناس بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعينة وتبعوا أذناب البقر وتركوا الجهاد فى سبيل الله أدخل الله تعالى عليهم ذلا لا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم » رواه الإمام أحمد فى مسنده والطبرانى فى الكبير والبيهقى فى شعب الإيمان عن عبد الله بن عمر

وأنتم تقرءون فى كتب الفقه ما ألف منها قديماً أوحديثاً متى يكون الجهاد فرض كفاية ومتى يكون فرض عين، وتعلمون حقائق ذلك ومعناه حق العلم ، فما هذا الخمول الذى ضرب بجرانه ؟ وما هذا اليأس الذى قبض على القلوب فلا تعى ولا تفيق؟ هذا أيها المسلمون عصر التكوين فكونوا أنفسكم ، وبذلك تتكون أمتكم .

إن هذه الفريضة تحتاج منكم نفوساً مؤمنة وقلوباً سليمة ، فاعملوا على تقوية إيمانكم وسلامة صدوركم ، وتحتاج منكم تضحية بالمال والجهود ، فاستعدوا لذلك فإن ما عندكم ينفد وما عند الله باق ، وإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم جنة عرضها السموات والأرض .

من أين نبدأ ؟

إن تكوين الأمم وتربية الشعوب وتحقيق الآمال ومناصرة المبادىء تحتاج من الأمة التى تحاول هذا أو من الفئة التى تدعو إليه على الأقل إلى قوة نفسية عظيمة تتمثل فى عدة أمور : إرادة قوية لا يتطرق إليها ضعف ، ووفاء ثابت لا يعدو عليه تلون ولا غدر ، وتضحية عزيزة لا يحول دونها طمع ولا بخل ،

ومعرفة بالمبدأ وإيمان به وتقدير له ، يعصم من الخطأ فيه والانحراف عنه والمساومة عليه والخديعة بغيره . على هذه الأركان الأولية التى هى من خصوص النفوس وحدها ، وعلى هذه القوة الروحية الهائلة تبنى المبادىء وتتربى الأمم الناهضة وتتكون الشعوب الفتية . وتتجدد الحياة فيمن حرموا الحياة زمناً طويلا . وكل شعب فقد هذه الصفات الأربعة ، أو على الأقل فقدها قواده ودعاة الإصلاح فيه فهو شعب عابث مسكين ، لا يصل إلى خير ولا يحقق أملا . وحسبه أن يعيش فى جو من الأحلام والظنون والأوهام : « إن الظن لا يغنى من الحق شيئا » .

هذا هو قانون الله تبارك وتعالى وسنته فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا :

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وهو أيضاً القانون الذى عبر عنه النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح ومعناه : « يوشك أن تتداعى عليكم الأكلة إلى قصعتها . ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن . فقال قائل : أو من قلة نحن يا رسول الله يومئذ ؟ قال : لا إنكم حينئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء

السيل ، فقال قائل : وما الوهن يارسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت » .

أو لست تراه صلى الله عيه وسلم قد بين أن سبب ضعف الأمم وذلة الشعوب وهن نفوسها وضعف قلوبها ، وخلاء أفئدتها من الأخلاق الفاضلة وصفات الرجولة الصحيحة ، وإن كثر عددها وزادت خيراتها وثمراتها ؟ .

وإن الأمة إذا رتعت فى النعيم وأنست بالترف وغرقت فى أعراض المادة وافتتنت بزهرة الحياة الدنيا ونسيت احتمال الشدائد ومقارعة الخطوب والمجاهدة فى سبيل الحق ، فقل على عزتها وآمالها العفاء .

بين القوتين

يظن كثير من الناس أن الشرق تعوزه القوة المادية من المال والعتاد ، وآلات الحرب والكفاح لينهض ويسابق الأمم التى سلبت حقه وهضمت أهله . ذلك صحيح ومهم ، ولكن أهم منه وألزم القوة الروحية من الخلق الفاضل والنفس النبيلة والإيمان بالحقوق ومعرفتها والإرادة الماضية ، والتضحية فى سبيل الواجب والوفاء الذى تنبنى عليه الثقة والوحدة ، وعنهما تكون القوة .

لو آمن الشرق بحقه وغير من نفسه ، واعتنى بقوة الروح وعنى بتقويم الأخلاق لأتته وسائل القوة المادية من كل جانب وعند صحائف التاريخ الخبر اليقين .

يعتقد الإخوان المسلمون هذا تمام الاعتقاد ، وهم لهذا دائبون فى تطهير أرواحهم وتقوية نفوسهم وتقويم أخلاقهم وهم لهذا يجاهدون بدعوتهم ويريدون الناس على مبادئهم ، ويطالبون الأمة بإصلاح النفوس وتقويم الأخلاق .

وهم لم يبتدعوا ذلك ابتداعاً شأنهم فى كل ما يقولون . ولكنهم يستمدونه من القاموس الأعظم والبحر الخضم والدستور المحكم والمرجع الأعلى ، ذلكم هو كتاب الله تبارك وتعالى ، وقد سمعت من قبل تلك المادة الخالدة من ذلكم القانون

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

ولقد كشف القرآن عن هذا المعنى فى كثير من آياته ، بل إنه ضرب لنا مثلا تطبيقياً خالداً واضحاً كل الوضوح صادقاً كل الصدق فى قصة بنى إسرائيل . تلك القصة الرائعة التى ترسم لكل أمة يائسة طريق التكوين .

المنهاج واضح

يعتقد الإخوان المسلمون أن الله تبارك وتعالى حين أنزل القرآن ، وأمر عباده أن يتبعوا محمداً صلى الله عليه وسلم ، ورضى لهم الإسلام ديناً وضع فى هذا الدين القويم كل الأصول اللازمة لحياة الأمم ونهضتها وإسعادها ، وذلك مصداق قول الله تبارك وتعالى :

« الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم » .

ومصداق قول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الشريف ما معناه : « والله ما تركت من شر إلا ونهيتكم عنه »

وأنت إذا أمعنت النظر فى تعاليم الإسلام وجدته قد وضع أصح القواعد وأنسب النظم وأدق القوانين لحياة الفرد رجلا وامرأة وحياة الأسرة فى تكوينها وانحلالها ، وحياة الأمم فى نشوئها وقوتها وضعفها ، وحلل الفكر التى وقف أمامها المصلحون وقادة الأمم .

فالعالمية والقومية والاشتراكية والرأسمالية والبلشفية والحرب وتوزيع الثروة ، والصلة بين المنتج والمستهلك ، وما يمت بصلة قريبة أو بعيدة إلى هـذه البحوث التى تشغل بال ساسة الأمم وفلاسفة الاجتماع ، كل هذه نعتقد أن الإسلام خاض فى لبها ، ووضع للعالم النظم التى تكفل له الانتفاع بما فيها من محاسن ، وتجنب ما تستتبعه من خطر وويلات ، وليس ذلك مقام تفصيل هذا المقال ، فإنما نقول ما نعتقد ونبين للناس ما ندعوهم إليه ، ولنا بعد ذلك جولات نفصل فيها ما نقوله .

لا بد من أن نتبع

وإذا كان الإخوان المسلمون يعتقدون ذلك ، فهم يطالبون الناس بأن يعملوا على أن تكون قواعد الإسلام هى الأصول التى تبنى عليها نهضة الشرق الحديث فى كل شأن من شئون الحياة ، ويعتقدون أن كل مظهر من مظاهر النهضة الحديثة يتنافى مع قواعد الإسلام ويصطدم بأحكام القرآن فهو تجربة فاسدة فاشلة ، ستخرج منها الأمة بتضحيات كبيرة فى غير فائدة ، فخير للأمم التى تريد النهوض أن تسلك إليه أخصر الطريق باتباعها أحكام الإسلام .

والإخوان المسلمون لا يختصون بهذه الدعوة قطراً دون قطر من الأقطار الإسلامية . ولكنهم يرسلونها صيحة يرجون أن تصل إلى آذان القادة والزعماء فى كل قطر يدين أبناؤه بدين الإسلام . وأنهم ليتهزون هذه الفرصة التى تتحد فيها الأقطار الإسلامية ، وتحاول بناء مستقبلها على دعائم ثابتة من أصول الرقى والتقدم والعمران .

احذروا الانحراف :

وإن أكبر ما يخشاه الإخوان المسلمون أن تندفع الشعوب الشرقية الإسلامية فى تيار التقليد فترفع نهضاتها بتلك النظم البالية التى انتقضت على نفسها ، وأثبتت التجربة فسادها وعدم صلاحيتها . إن لكل أمة من أمم الإسلام دستوراً عاما فيجب أن تستمد موارد دستورها العام من أحكام القرآن الكريم ، وإن الأمة التى تقول فى أول مادة من مواد دستورها : إن دينها الرسمى الإسلام ، يجب أن تضع بقية المواد على أساس هذه القاعدة وكل مادة لا يسيغها الإسلام ولا تجيزها الأحكام يجب أن تحذف ، حتى لا يظهر التناقض فى القانون الأساسى للدولة .

أصلحوا القانون

وإن لكل أمة قانونا يتحاكم إليه أبناؤها ، وهذا القانون يجب أن يكون مستمداً من أحكام الشريعة الإسلامية ، مأخوذاً عن القرآن الكريم متفقاً مع أصول الفقه الإسلامى وإن فى الشريعة الإسلامية وفيما وضعه المشرعون المسلمون ما يسد الثغرة ويفى بالحاجة وينقع الغلة ، ويؤدى إلى أفضل النتائج وأبرك الثمرات . وإن فى حدود الله لو نفذت لزاجراً يردع المجرم وإن اعتاد الإجرام . ويكف العادى وإن تأصل فى نفسه العدوان ، ويريح الحكومات من عناء التجارب الفاشلة ، والتجربة تثبت ذلك وتؤيده ، وأصول التشريع الحديث تنادى به وتدعمه، والله تبارك وتعالى يفرضه ويوجبه : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » .

أصلحوا مظهر الاجتماع

وإن فى كل أمة مظاهر من الحياة الاجتماعية تشرف عليها الحكومات وينظمها القانون وتحميها السلطات ، فعلى كل أمة شرقية إسلامية أن تعمل على أن تكون كل هذه المظاهر مما يتفق وآداب الدين ، ويساير تشريع الإسلام وأوامره .

إن البغاء الرسمى لطخة عار فى جبين كل أمة تقدر الفضيلة ، فما بالك بالأمم الإسلامية التى يفرض عليها دينها محاربة البغاء والضرب على يد الزناة بشدة :

« ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين »

إن حانات الخمر فى أظهر شوارع المدن وأبرز أحيائها ، وتلك اللوحات الطويلة العريضة عن المشروبات الروحية ، وهذه الإعلانات الظاهرة الواضحة عن أم الخبائث مظاهر يأباها الدين ، ويحرمها القرآن الكريم أشد التحريم .

حاربوا الإباحية

وإن هذه الإباحية المغرية والمتعة الفاتنة واللهو العابث فى الشوارع والمجامع والمصايف والمرابع يناقض ما أوصى الإسلام باتباعه من عفة وشهامة وإباء ، وانصراف إلى الجد وابتعاد عن الإسعاف .

« إن الله يحب معالى الأمور ويكره سفسافها »

فكل هذه المظاهر وأشباهها على الأمم الإسلامية أن تبذل فى محاربتها ومناهضتها كل ما فى وسع سلطانها وقوانينها من طاقة وجهود ، لا تنى فى ذلك ولا تتواكل

نظموا التعليم

وإن لكل أمة وشعب إسلامى سياسة فى التعليم وتخريج الناشئة وبناء رجال المستقبل الذين تتوقف عليهم حياة الأمة الجديدة ، فيجب أن تبنى هذه السياسة على أصول حكيمة ، تضمن للناشئين مناعة دينية وحصانة خلقية ، ومعرفة بأحكام دينهم ، واعتدادا بمجده الغابر وحضارته الواسعة .

هذا قليل من كثير من الأصول التى يريد الإخوان المسلمون أن ترعاها الأمم الإسلامية فى بناء النهضة الحديثة ، وهم موجهون دعوتهم هذه إلى كل المسلمين شعوباً وحكومات ، ووسيلتهم فى الوصول إلى تحقيق هذه الغايات الإسلامية السامية وسيلة واحدة : أن يبينوا ما فيها من مزية وإحكام . حتى إذا ذكر الناس ذلك واقتنعوا بفائدته أنتج ذلك عملهم له ونزولهم على حكمه : « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » .

انتفعوا بإخاء إخوانكم

ينادى الإسلام أبناءه ومتبعيه فيقول لهم :

« واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » .

ويقول القرآن الكريم فى آية أخرى :

« إنما المؤمنون إخوة » وفى آية أخرى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » .

ويقول النبى الكريم صلى الله عليه وسلم : « وكونوا عباد الله إخواناً » وكذلك فهم المسلمون الأولون (رضوان الله عليهم) من الإسلام هذا المعنى الأخوى ، وأملت عليهم عقيدتهم فى دين الله أخلد عواطف الحب والتآلف ، وأنبل مظاهر الأخوة والتعارف ، فكانوا رجلا واحداً وقلباً واحداً ويداً واحدة ، حتى امتن الله بذلك فى كتابه فقال تبارك وتعالى :

« وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » .

تطبيق

وإن ذلك المهاجر الذى كان يترك أهله ، ويفارق أرضه فى مكة ويفر بدينه ، كان يجد أمامه أبناء الإسلام من فتيان يثرب ينتظرون وكلهم شوق إليه ، وحب له وسرور بمقدمه ، وما كان لهم سابق معرفة ولا قديم صلة ، وما ربطهم به وشيجة من صهر أو عمومة ، وما دفعتهم إليه غاية أو منفعة . وإنما هى عقيدة الإسلام ، جعلتهم يحنون إليه ويتصلون به ، ويعدونه جزءاً من أنفسهم ، وشقيقاً لأرواحهم ، وما هو إلا أن يصل المسجد حتى يلتف حوله الغر الميامين من الأوس والخزرج ، كلهم يدعوه إلى بيته ويؤثره على نفسه ويفديه بروحه وعياله ، ويتحدث بمطلبه هـذا حتى يؤول الأمر إلى الاقتراع ، حتى روى الإمام البخارى ما معناه :

« ما نزل مهاجرى على أنصارى إلا بقرعة » .

وحتى خلد القرآن للأنصار ذلك الفضل أبد الدهر ، فمازال يبدو غرة مشرقة فى جبين السنين فى قول الله تبارك وتعالى :

« والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون

على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

وعلى هذا درج أبناء الإسلام ، وخص الرعيل الأول ممن وجدت بين نفوسهم الأخوة الإيمانية ، لا فرق بين مهاجرهم وأنصاريهم ، ولا بين مكيهم ويمنيهم ، حتى أثنى الرسول الكريم على الأشاعرة من أهل اليمن بقوله صلى الله عليه وسلم ما معناه :

« نعم القوم الأشعريون إذا جهدوا فى سفر أو حضر جمعوا ما عندهم فوضعوه فى مزادتهم ، ثم قسموه بينهم بالسوية » .

وأنت إذا قرأت القرآن الكريم ، وأحاديث النبى العظيم صلى الله عليه وسلم ، وطالعت سير الغر الميامين من أبناء هذا الدين رأيت من ذلك ما يقر عينيك ويملأ سمعك وقلبك .

أخوة تعلو الإنسانية

ولقد أثمرت هذه العقيدة ثمرتين لا بد لنا من أن نجنيهما ، ونتحدث إليك عما فيهما من حلاوة ولذة وخير وفائدة ، فأما الأولى منهما فقد أنتجب هذه العقيدة أن الاستعمار الإسلامى لم يشبهه استعمار فى التاريخ أبداً ، لا فى غايته ولا فى مسالكه

وإدارته ، ولا فى نتائجه وفائدته ، فإن المستعمر المسلم إنما كان يفتح الأرض حين يفتحها ليعلى فيها كلمة الحق ، وينير أفقها بسنة القرآن الكريم ، فإذا أشرقت على نفوس أهلها شمس الهداية المحمدية فقد زالت الفوارق ، ومحيت المظالم ، وشملها العدل والإنصاف ، والحب والإخاء ، ولم يكن هناك فاتح غالب وخصم مغلوب ، ولكن إخوان متحابون متآلفون ، ومن هنا تذوب فكرة القومية ، وتنجاب كما ينجاب الثلج سقطت عليه أشعة الشمس قوية مشرقة أمام فكرة الأخوة الإسلامية التى يبثها القرآن فى نفوس من يتبعونه جميعاً .

إن ذلك الفاتح المسلم قبل أن يغزو من غزا ، ويغلب من غلب ، قدباع نفسه وأهله ، وتجرد من عصبيته وقوميته فى سبيل الله ، فهو لا يغزو لعصبية ولا يغلب لقومية ، ولا ينتصر لجنسية ، ولكنه يعمل حين يعمل (لله) ولله وحده لاشريك ، وإن أروع ما أثر من الإخلاص فى الغاية ، وتجريد النفس من الهوى ما جاء فى الحديث الشريف ما معناه أن رجلا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إنى أحب أن أجاهد فى سبيل الله ،

وأحب أن يرى موقفى ، فسكت النبى صلى الله عليه وسلم ولم يجبه فنزلت الآية الكريمة :

« فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » . أرأيت كيف اعتبر الإسلام تطلع هذا الشخص إلى الثناء والمدح وهما من طبائع النفوس شركا خفياً يجب أن يتنزه عنه ويسمو بشرف الغاية النبيلة عنه ؟ وهل هناك أخلص من أن ينسى الإنسان نفسه فى سبيل غايته ؟ وهل تظن أن رجلا يشترط عليه دينه أن يتجرد من نفسه ، ويكبت عواطفها وميولها وأهواءها ، حتى يكون جهاده خالصاً لله وحده — يفكر بعد هذا فى أن يجاهد لعصبية ، أو يغزو لجنس أو قومية ؟ اللهم لا .

إن ذلك المغلوب الذى شاء له القدر أن يسعد بالإسلام ويهتدى بهديه ما ترك بلده وأرضه لأجنبى عنه يتحكم فيها ويسخره تسخير العبد الذليل ، ويستأثر دونه بخيراتها ، ولكنه ترك ما ترك لأنه يخلطه بنفسه ويمزجه بروحه ويناديه بإخلاص : لك ما لنا وعليك ما علينا ، وكتاب الله تبارك وتعالى يفصل بيننا ، فكلاهما فنى فى غايته وضحى فى سبيل مبدئه ، وترك ما ترك ليعم الإنسانية نور الله ، وتسطع

عليها شمس القرآن الكريم ، وفى ذلك تمام إسعادها وكمال رقيها لو كانوا يعلمون .

أفق الوطن الإسلامي

أما الثمرة الثانية فإن الإخوة الإسلامية جعلت كل مسلم يعتقد أن كل شبر من الأرض فيه أخ يدين بدين القرآن الكريم قطعة من الأرض الإسلامية العامة التى يفرض الإسلام على كل أبنائه أن يعملوا لحمايتها وإسعادها ، فكان من ذلك أن اتسع أفق الوطن الإسلامى ، وسما عن حدود الوطنية الجغرافية والوطنية الدموية إلى وطنية المبادىء السامية والعقائد الخالصة الصحيحة ، والحقائق التى جعلها الله للعالم هدى ونورا ؛ والإسلام حين يشعر أبناءه بهذا المعنى ويقرره فى نفوسهم يفرض عليهم فريضة لازمة لحماية أرض الإسلام من عدوان المعتدين ، وتخليصها من غصب الغاصبين ، وتحصينها من مطامع المعتدين .

طريق طويلة

أرجو أن تكون هذه الكلمات المتتاليات فى بيان دعوة الإخوان المسلمين قد كشفت للقراء الكرام عن غايتهم ،

وأبانت لهم ولو إلى حد ما عن مناهجهم فى السير إلى هـذه الغاية ، وقد تحدثت من قبل إلى كثير من إخواننا الغيورين على الإسلام وجده حديثاً طويلا هو أشبه بهذه الـكلمات التى رآها القراء تحت عنوان : « إلى أى شىء ندعو الناس » .

ولقد أصغى إلى من حدثتهم إصغاء مشكوراً ، وكنا نتفهم القول تباعاً أولا فأولا ، حتى خرجنا من المحادثة مقتنعين تماماً بشرف الغاية ونجاح الوسيلة ، وكم كانت دهشتى عظيمة حين رأيت منهم شبه إجماع على أن هـذه السبيل مع التسليم بنجاحها طويلة ، وأن التيارات الجارفة الهدامة فى البلد قوية ، مما يجعل اليأس يدب إلى القلوب ، والقنوط يستولى على النفوس ، وحتى لا يجد القراء الكرام فى أنفسهم هذا الشعور الذى وجده أولئك المتحدثون من قبل ، أحببت أن تكون هـذه الكلمة مفعمة بالأمل فياضـة باليقين فى النجاح إن شاء الله ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ؛ وسأحضر الموضوع فى نظرتين إيجابيتين .

نظرة فلسفية اجتماعية

يقول علماء الاجتماع إن حقائق اليوم هى أحلام الأمس ، وأحلام اليوم حقائق الغد . وتلك نظرة يؤيدها الواقع ، ويعززها الدليل والبرهان ، بل هى محور تقدم الإنسانية وتدرجها فى مدارج الكمال ؛ فمن ذا الذى كان يصدق أن يصل العلماء إلى ماوصلوا إليه من المكتشفات والمخترعات قبل حدوثها ببضع سنين ، بل إن أساطين العلم أنفسهم أنكروها لأول عهدهم بها ، حتى أثبتها الواقع وأيدها البرهان ، والمثل على ذلك كثيرة ، وهى من البداهة بحيث يكفينا ذلك عن الإطالة بذكرها .

نظرة تاريخية

إن نهضات الأمم جميعها إنما بدأت على حال من الضعف يخيل للناظر إليها أن وصولها إلى ما تبتغى ضرب من المحال ، ومع هذا الخيال فقد حدثنا التاريخ أن الصبر والثبات والحكمة والأناة وصلت بهذه النهضات الضعيفة النشأة القليلة الوسائل إلى ذروة ما يرجو القائمون بها من توفيق ونجاح ، ومن ذا كان يصدق أن الجزيرة العربية وهى تلك الصحراء

الجافة المجدبة تنبت النور والعرفان ، وتسيطر بنفوذ أبنائها الروحى والسياسى على أعظم دول العالم؟ ومن ذا الذى كان يظن أن أبا بكر وهو ذلك القلب الرقيق اللين ، وقد انتقض الناس عليه ، وحار أنصـــاره فى أمرهم يستطيع أن يخرج فى يوم واحد أحد عشر جيشاً تقمع العصاة وتقيم المعوج ، وتؤدب الطاغى وتنتقم من المرتدين وتستخلص حق الله فى الزكاة من المانعين؟ ومن ذا الذى كان يصدق أن هذه الشيعة الضئيلة المستترة من بنى على والعباس تستطيع أن تقلب ذلك الملك القوى الواسع الأكناف ما بين عشية أو ضحاها ، وهى ما كانت يوماً من الأيام إلا عرضة للقتل والتشريد والنفى والتهديد؟ ومن ذا الذى كان يظن أن صلاح الدين الأيوبى يقف الأعوام الطوال فيرد ملوك أوربا على أعقابهم مدحورين ، مع توافر عددهم وتظاهر جيوشهم ، حتى اجتمع عليه خمسة وعشرون ملكا من ملوكهم الأكابر؟.

ذلك فى التاريخ القديم ، وفى التاريخ الحديث أروع المثل على ذلك ، فمن كان يظن أن الملك عبد العزيز آل سعود وقد نفيت أسرته وشرد أهله وسلب ملكه يسترد هذا الملك ببضعة وعشرين رجلا ، ثم يكون بعد ذلك أملا من آمال العالم

الإسلامى فى إعادة مجده وإحياء وحدته ؟ ومن كان يصدق أن ذلك العامل الألمانى (هتلر) يصل إلى ما وصل إليه من قوة النفوذ ونجاح الغاية ؟ .

هل هناك طريق أخرى ؟

وثم نظرتان سلبيتان تحدثان النتيجة بعينها ، وتوجهان قلب الغيور إلى العمل توجيهاً قوياً صحيحاً . أولاهما : أن هذه الطريق مهما طالت فليس هناك غيرها فى بناء النهضات بناء صحيحاً ، وقد أثبتت التجربة صحة هذه الظرية .

الواجب أولا

وثانيهما أن العامل يعمل لأداء الواجب أولا ، ثم للأجر الأخروى ثانياً، ثم للإفادة ثالثاً ، وهو إن عمل فقد أدى الواجب وفاز بثواب الله ما فى ذلك من شك ، متى توفرت شروطه ، وبقيت الإفادة وأمرها إلى الله ، فقد تأتى فرصة لم تكن فى حسابه تجعل عمله يأتى بأبرك الثمرات ، على حين أنه إذا قعد عن العمل فقد لزمه إثم التقصير ، وضاع منه أجر الجهاد ، وحرم الإفادة قطعاً فأى الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً ؟ وقد أشار القرآن الكريم

إلى ذلك فى صراحة ووضوح فى الآية الكريمة : « لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ، قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون ، فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء ، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون » (سورة الأعراف)

قصة أمة تتكون

ضعف

نحن الآن أمام جبار متكبر يستعبد عباد الله ويستضعفهم ويتخذهم خدماً وحشماً وعبيداً وخولا ، وبين شعب من الشعوب الكريمة المجيدة ، استعبده ذلك الطاغية الجبار ، ثم أراد الله تبارك وتعالى أن يعيد لهذا الشعب المجيد حريته المسلوبة وكرامته المغصوبة ومجده الضائع وعزه البائد ، فكان أول شعاع من فجر حرية هذا الشعب إشراق شمس زعيمه العظيم (موسى) على الوجود طفلا رضيعاً : « نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي

نساءهم ، إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الأرض» .

زعامة

ونحن بعد هذا أمام هذا الزعيم وقد بلغ أشده واستوى ، وتولته العناية الإلهية ، بعد أن أنفت نفسه الظلم وعافت الضيم ، ففر بنفسه وهرب بحريته ، حيث اصطنعه الله لنفسه وحمله عبء رسالته ، وأسند إليه خلاص شعبه ؛ فآب مملوءاً بالإيمان ، مؤيداً باليقين ، يواجه ذلك الجبار فيطلب إليه أن يعيد إلى شعبه حريته ، ويترك له كرامته ، ويؤمن به ويتبعه وما أروع ذلك التهكم المر اللاذع حين يحكى القرآن الكريم قول الرسول العظيم : « وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل » .

أيها الجبار المتحكم فى عباد الله لا عبادك ، هل من النعمة التى تذكرنى بها ، والجميل الذى تسديه إلى ، أن تستعبد شعبى وتحقر أمتى وتمتهن قومى ؟ . . إنها صيحة الحق دوت من فم النبى الكريم فزلزلت عرش الجبار وهزت ملكه :

« فأتيا فرعون فقولا إنا رسولا رب العالمين . أن أرسل معنا بنى إسرائيل ، قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين ، قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين . ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين » .

سورة الشعراء

صراع

ونحن الآن نشهد غضبة القوة على الحق ، كيف تثور عليه وتنتقم منه وتعذب أهله وتقهر مناصريه ، ثم كيف يصبر أهل الحق على كل ذلك ، وكيف يعللهم رؤساؤهم بالآمال الحلوة والأمانى العذبة ؛ حتى لا يجد الخور إلى نفوسهم سبيلا :

« وقال الملأ من قوم فرعون : أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك قال : سنقتل أبناءهم ، ونستحى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون . قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ؛ إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » .

إيمان

وما أروع أن نشهد ذلك النموذج الخالد من الثبات والصبر، والاستمساك بعروة الحق، والاستهانة بكل شيء، حتى الحياة فى سبيل الإيمان والعقيدة من أتباع هذا الزعيم الذين آمنوا بدعوته، وقد تحدوا هذا الجبار فى استهانة واستماتة: « فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا. إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر، والله خير وأبقى ».

انتصار

فإذا رأينا كل ذلك رأينا عاقبته فى القسم الخامس، وما أدراك ما هى؟ فوز وفلاح وانتصار، ونجاح وبشرى تزف إلى المهضومين، وأمل يتحقق للحالمين، وصيحة الحق المبين، تدوى فى آفاق الأرض: « يابنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم ».

الثمن ٢٠ مليما